لغة الصمت في القرآن الكريم

أ. د. اسراء عريبي فدعم الدوري

تتمايز الأشياء بعلة طبيعتها وأحوال خلقها، ويظهر تباينها بنقائضها، فالجمال تظهر ملامحه بموازنته بالقبح، فنحن نعرف معايير الصورة الجميلة إذا وازناها بصورة قبيحة، وندرك مواطن الصوت الجميل بموازنته بصوت قبيح، ونتعرف على ثوابت الخلق الكريم بموازنته بالخلق السيئ وهكذا، ولما كان كل شيء مخلوق بقدر معلوم، قال تعالى " ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩ كان كل ما يعتور الحياة له قدره وفائدته وحتى مضاره، واللغة نعمة جليلة وهبها الله بحكمته الكريمة للبشرية، وقد تبارى اللغويون حديثا وقديما في تعريفها ووضع حدودها، والتقول في نظريات نشوئها التي اعتمدت في أحيان كثيرة على أمور غيبية، كذلك تناولوا بالتفصيل فؤادها للحياة، ولم يتركوا فيها شاردة أوواردة إلا ودرسوها فقعدوا لها القواعد، واسكنوا كلماتها الكتب وقيدوا ألفاظها في المعاجم حفاظا عليها بقديمها وقشيبها، وقد تعددت أنواع اللغات فمنها اللغة الصوتية الكلامية وهناك اللغة الاشارية واللغة الرقمية واللغة الضوئية وغيرها، ومقابل هذه اللغة ونقيضها هوالصمت الذي يعد لغة نقيضة للغات التي تستعمل الأدوات المختلفة لتوصيل المعاني وهناك أدوات متعددة فمنها الأداة الصوتية، وقد تكون رسوما أوحركات جسمية وغير ذلك من وسائل التعبير غير اللفظية.

وبينما نجد من يفسر مراده باللفظ نجد أحيانا أخرى من يفسر دون اللفظ، وكثيرا ما نواجه في حياتنا اليومية مواقف يكون التعبير فيها بغير اللفظ أبلغ من التعبير باللفظ، وفي واقعنا المعاصر ما يشهد بذلك حيث أصبح الرمز يعبر أحيانا بشكل أعمق من الكلام، ولا يخفى دور ما يعرف بـ (الكاريكاتير) في التعبير عن الواقع وعن قصص وأحداث كثيرة ، بل أحيانا يكون الصمت أبلغ من الحديث وقد يؤدي رسالة كاملة من التعبير، ولهذا نجد أن كثيرا من العلماء تحدثوا عن الصمت وابرزوا أهميته، ويذكر أن للعرب أمثالا وأقوالا وأشعارا كثيرة تتعلق بالصمت وفوائده، ولعل في تجربة الصوفية ما يؤكد دور الصمت، بل أن الصمت عندهم هوالأصل لا النطق والتعبير ١، فنجد من نصائح الأشياخ للسالكين قولهم: "واعلم أن هذا الرضى وهذا المقام يخص من حضر معهم بالتأدب وخرج عن نفسه وتحلى بالذلة والانكسار فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم وانطرح وانكسر إذا حللت بناديهم فعند ذلك تذوق لذة الحضور واستعن على ذلك بملازمة الصمت تشرق لك أنوار الفرح ويغمرك السرور كما قال رضي الله عنه:

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل... لا علم عندي وكن بالجهل مستترا

الصمت عند أهل الطريقة من لازمه ارتفع بنيانه وتم غراسه وهونوعان ١ - صمت باللسان ٢ - وصمت بالجنان وكلاهما لا بد منه في الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلى له سره، وكلمه ربه وهذا غاية الصمت وكلام الشيخ قابل لذلك فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سئلت فإن سئلت فارجع إلى أصلك ووصلك وقل لا علم عندي واستتر بالجهل، تشرق لك أنوار العلم اللدني فإنك مهما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلك لاحت لك معرفة نفسك فإذا عرفتها عرفت ربك كما روي في الحديث من عرف نفسه عرف ربه، وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه ٢، وفي بحثنا هذا سنحاول أن نتناول لغة الصمت ونقعد لها ونذكر فوائدها ونكشف عن استعمالاتها، ثم نتناول مواطن استعمالها في القرآن الكريم. وموضوع الصمت موضوع بكر بحسب علمي لذا سأحاول في بحثي هذا أن أبين كيفية استخدام لغة الصمت، ومتى نتناولها وعلى ماذا يكون الصمت.

ولما كانت اللغة قائمة على أصوات تنتظم لتكون الكلمة، التي بدورها تنتظم لتشكل الجملة، كان الصمت يقف أزاء كل مستويات اللغة من صوت وكلمة وجملة، فالمتحدث قد يصمت عن صوت، وقد يصمت ويسكت عن كلمة وقد يصمت عن جملة وقد يصمت عن نص كامل بحسب ما يقتضيه التعبير وما تتطلبه البلاغة أحيانا.

ولغة الصمت لا تماز من غيرها عن

لغات العالم، فهي موضوعة لايصال معان يريدها الفرد داخل الجماعة اللغوية،ولا تختلف كثيرا عن اللغة التي تكون أدواتها الأصوات اللغوية أولغة الرسم التي تكون الألوان والفرشاة أداة لها أواللغة الضوئية التي تكون الأضواء معانيها أواللغة الرياضية التي تكون الارقام ملاك مادتها، وكل لغة في العالم وضعها الانسان أوابتكرها تكون من أجل التفاهم وتبادل الخبرات، وتعد لغة الصمت اللا لغة وسيلة للتعبير عن المواقف والمشاعر والمعاني المختلفة التي يريد المستعمل لها.

والصمت وسيلة للتعبير، غير لفظية يؤدي دوره في نقل الدلالة النفسية، وقد تحدث عن الصمت من المعاصرين كل من (ديقيتو) و(ساموفر) في بعض كتاباتهم وافردوا له فصلا مستقلا في بعض بحوثهم ٣ وهذا ليس بجديد فقد تناوله علماؤنا شذرات متفرقة في مباحثهم اللغوية بله مباحث الفلاسفة والمفكرين والأصوليين والمتكلمة، فمثلا نلمس لغة الصمت والدلالات النفسية التي تحملها في خلال بعض النصوص القرآنية، في:(البهت)الذي يعني السكوت والانقطاع عن الحديث، وهويعبر عن حالة نفسية من الدهشة والغلبة، وتوجد وسائل أخرى للتعبير عن مراد الإنسان تتمثل بحركاته والاشارات الصادرة منه وهوما يطلق عليها اللغة البدنية، وقد لوحظ حضور وسائل التعبير هذه في كثير من نصوص ٤ ولما سكت عن موسى الغضب الاعراف ١٥٤

لذا فإن القرآن العظيم قد احتوى الكثير من اللغات الإنسانية التي لم تدرس بعد، وكلها موضوعات بكر تحتاج إلى ألباب المهتمين لسبر غورها والبحث عن مكنون دررها، ومن هذه اللغات لغة الصمت، الذي من الله علي بالبحث فيها ودراستها، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون على خمس مباحث المبحث الأول تعريف الصمت لغة واصطلاحا وتعريف دلالة الصمت المبحث الثاني الصمت عند الأنبياء المبحث الثالث مصطلحات الصمت في القران الكريم المبحث الرابع صمت الكفار في يوم القيامة المبحث الخامس الصمت عن حرف وكلمة وجملة ثم وضعنا اليراعة عند خاتمة البحث وثبت المصادر، والحمد لله المنان ذوالجلال والأكرام وصلى الله على خير الأنام.

المبحث الأول
تعريف الصمت لغة واصطلاحا وتعريف دلالة الصمت

الصمت لغة: صمت يصمت صمتا وصموتا، واصمت:أطال السكوت، والتصميت التسكيت، والتصميت أيضا السكوت ٥، والصمت والصموت والصمات السكوت كالاصمات والتصميت وقد حاولنا في هذا البحث أن نتتبع الألفاظ التي استعملت دلالتها للصمت،وهي:

١- نصت ٢-سكت السكت والسكوت خلاف النطق
٣- حبس-حبسه يحبسه حبسا والحبسة بالضم الاسم من الاحتباس يقال الصمت ٦.
٤-المخرنبق - المطرق الساكت الكاف ٧ .
٥- خرمق امرأة مخرمقة لا تتكلم ٨
٦- أزم الباب أزما أغلقه والأزم الإمساك، والآزم الذي ضم شفتيه، والأزم الصمت ٩
٧- أضبأ على الشيء إضباء سكت عليه
٨- ضب وأضب به سكت، مثل أضبأ، وأضب على الشيء وضب سكت عليه
٩- الارمام والبجوم الصمت ١٠.
١٠- كزم إن أفيض في الخير،كزم يريد إن تكلم الناس في الخير سكت،وسلم لهم الكلام، وأصل الكزم ضم الفم ١١
١١- أقرد الرجل إذا سكت ذلا
١٢- همد الهمدة السكتة همدت أصواتهم أي سكنت وأهمد سكت على ما يكره١٢,١٣- ضمز إذا سكت
١٣- بلس أبلس الرجل قطع به ،وأبلس سكت
١٤- الإطراق السكوت عامة، وقيل السكوت من فرق
١٥-أمسكت عن الكلام أي سكت
١٦- أطم شفتيه إذا عض عليها وأطمت أطوما إذا سكت،التأطم سكوت الرجل على ما في نفسه
١٧- بجم
١٨- بلسم
١٩- بلطم
٢٠- جزم
٢١- أرم
٢٢- طرسم
٢٣- استعجم الرجل سكت
٢٤- قرسم الرجل سكت ١٣.
٢٥- الكظوم السكوت،
٢٦- سكن
٢٧- غضا
٢٨- نطا الرجل
٢٩- طرسم طرسمة وبلسم بلسمة إذا فرق

أطرق وسكت.

نخلص مما سبق أن للعرب حسا دقيقا للمعنى، وقد وضعوا لكل معنى دقيق لفظة، فالصمت هوالسكوت وعدم التكلم، لكن متى نصمت جواب هذا السؤال هويحدد اللفظ المراد، فللصمت عند الاصغاء لفظ، وعند الخوف له لفظة، وعند الذل لفظ وعند الحكمة لفظ، وهذا من باب دقيق المعاني

لغة الصمت:

أقسام الصمت

الصمت من حيث الاستعمال ينقسم القسمة العقلية التي هي جائز الاستعمال وواجب ومستحب ومستكره. وتتوزع اقتومات وجوب الصمت على مواضع مختلفة، منها تتعلق بالعبادة ومنها تتعلق بالأمور الحياتية، ففي العبادة مثلا أدرك العلماء من الأصوليين والفقهاء أهمية الصمت في التشريعات الدنيوية وفي العبادات، فلم يتركوا شاردة ولا واردة إلا وفصلوا فيها،والتي جمعها الباحث هيمن أحمد محمد الباليساني في رسالته الموسومة أحكام السكوت

فضل لغة الصمت على لغة الكلام في خلال القران الكريم

الفائدة والاستعمال هما الفيصل للبت في حكم أفضلية لغة ما على أخرى، فالمواقف هي التي تطلب اللغة التي تؤدي معناها، ومن البدهي أن لغة الكلام من أهم لغات الكون إلا أن استعمالها في كل المواقف ليس بصحيح ولاتؤدي أحيانا المعنى الذي يريده الانسان، فلغة الاشارة أولغة الصمت أولغة العيون أولغة الأرقام والرموز الرياضية تحمل معاني كثيرة لايستطيع أحيانا أن تؤديها أوتعبر عنها الكلمات المنطوقة، كذلك قد تخفق جميع اللغات عن تأدية معنى ما ولا يؤديه سوى الكلام المنطوق، فإن قال السلف لكل مقام مقال قلنا لكل مقام لغة، وقد تحدث سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم عن أفضلية الصمت والكلام وقد وقف الكثير من القدماء عند هذا أيضا. إذن ليس هناك أفضلية ولكن هناك مقام يطلب استعمال لغة الصمت ومواقف اخرى الأفضل فيها الكف عن الصمت والتحدث فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِالْكَلَامِ بِالْخَيْرِ، وَالسُّكُوت عَمَّا لَيْسَ بِخَيْرٍ.

فَلَيْسَ الْكَلَامُ مَأْمُورًا بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَا السُّكُوتُ كَذَلِكَ، بَلْ لَابُدَّ مِنَ الْكَلَامِ بِالْخَيْرِ وَالسُّكُوت عَنِ الشَّرِّ، وَكَانَ السَّلَفُ كَثِيرًا يَمْدَحُونَ الصَّمْتَ عَنِ الشَّرِّ، وَعَمَّا لَا يُعْنِي لشدَّته عَلَى النَّفْس، وَذَلِكَ يَقَعُ فِيهِ النَّاسُ كَثِيرًا، فَكَانُوا يُعَالِجُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيُجَاهِدُونَهَا عَلَى السُّكُوت عَمَّا لَا يَعْنِيهِمْ.١٤

اذن يمكننا القول إن هناك مواقفا حبب لنا الله فيها استعمال لغة الصمت وهناك مواقفا يستحب لنا بها استعمال لغة الصمت، ونستطيع أن نتبين هذه المواقف في خلال عدد من الآيات الكريمات: واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم الانعام ٦٨ ، وقوله تعالى لا يسخر قوم من قوم الحجرات ١١ وقوله

والصمت المرغَّب فيه: ترك الكلام في الباطل، وكذا المباح إن جر إلى شيء من ذلك.

والصمت المنهيُّ عنه: ترك الكلام في الحق لمن يستطيعه، وَ قيم الدّين الصَّلَاة وسنام الْعَمَل الْجِهَاد وَأفضل أَخْلَاق الْإِسْلَام الصمت) ١٥أي السُّكُوت عَمَّا لَا يَنْبَغِي (حَتَّى يسلم النَّاس مِنْك) أي من لسَانك ويدك ١٦.

وقال بعضهم (إن الله تعالى يحب الصمت) أي السكوت حيث لا ضرورة إلى الكلام (عند ثلاث) من الأشياء.

الأول: عند استماع لقراءة القرآن وذلك ليتدبر معانيه ويتأمل أحكامه، قال تعالى ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ ١٧

الثاني:كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يكره الصوت عند القتال ، وذلك لأن الساكن الساكت أهيب وأرهب ١٨.

الثالث: (عند الجنازة) ١٩.

المبحث الثاني الصمت عند الأنبياء

صمت رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

لحبيبنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تخص لغة الصمت وفضلها وأهميتها في الحياة،لكن هنا نقف عند صمت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم وقد جاء في صمت الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وما ينطق عن الهوى، ان هوالا وحي يوحى ٣،٤ النجم

نطَق ينْطِق نُطْقاً بالضمِّ ومَنْطِقاً كمَوْعد. وهو مِنطيقٌ بليغ ونطْقاً، بالفَتْح، ونُطوقاً كقُعود: تكلّم بصوْت.

فالحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ما ينطق بالهوى والشهوة،أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآن إلا وحي يوحى. وفي هذا أيضا تخصيص له بالشهادة إذ

قال لداود: «فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى» ٢٠وقال في صفة نبيّنا صلى الله عليه وسلم: «وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى». ٢١

وفي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾

فيه مسألتان:

ومن مواضع صمت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن قوله تعالى قد نرى تقلب وجهك في السماء البقرة ١٤٤

صمت سيدتنا مريم عليها السلام

صيام الصمت في القرآن الكريم

لقد ادرك القدماء أهمية لغة الصمت وصعوبة استعمالها، لأنها تخضع خلجات النفس وخلاتها وانفعالاتها تحت ستر الكتمان، فلا يبس صاحبها ولا ينس، وليس من اليسير استعمال لغة الصمت لساعات طوال، فلغة الصمت تحتاج إلى صبر وقوة احتمال واخضاع رغبات الكلام المعلقة برغبات الانسان المتدافعة المتحركة نحوالسكون والصمت والكتمان، لذا كان الصمت نوعا من أنواع العبادة وهذا ما أكده حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: مقام الرجل بالصمت أفضل من عبادة ستين، وأخرج البيهقي عن أبي جحيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى الله قال فسكتوا فلم يجبه أحد قال هوحفظ اللسان.قال تعالى :فاما ترين من البشر أحد فقولي إني نذرت للرحمن فلن اكلم اليوم انسيا مريم ٢٦

صمت زكريا عليه السلام

كما كان الحديث والكلام صورة من صور الاعجاز الرباني للبشر من جهة عجز البشر عن الحديث ببليغ الكلام الالهي كلام الله المعجز ومن جهة أخرى الاعجاز الكلامي المخالف لناموس الانسان والخارق لطبيعتهم البشرية التي لا تنطق إلا بعد سن يبلغ الجهاز الصوتي مبلغ نضجه، كان الصمت والعجز عن الكلام معجزة مناقضة للكلام، وآية ساقها الله لنبيه زكريا مع بشارة انجابه قال تعالى: قال رب ااجعل لي آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا مريم ١٠

صمت موسى عليه السلام مع الرجل الصالح

في القرآن الكريم مرايا تعكس خلجات النفس الانسانية وتكشف ما يحدث لها من صرعات داخلية، فالقرآن مرايا تفسر بالحدث ما تتناوش الأفكار من عقل الانسان وتفصح عما يحدث من صراع يأز الروح فيقلقها فيتصعد هذا الصراع في انفعالات الانسان وحركات جسمه وتنطلق أفكاره وهواجس نفسه وقلق روحه على شكل كلمات تجري على لسانه يعقلها اللاعقل فيه ويحيطها اللا شعور الذي يتملكه ويتساقط الوعي أمام هذا الكم من الاضطراب فيستحيل إلى فراشة تذهب إلى حتفها ظانة أنها قد وجدت النور الذي هونار ما تتلبث بها الا يسيرا حتى تحترق أجنحتها.

ومن الصور الرائعة التي يرسمها القرآن الكريم لهذا الصراع نجدها في قصة عظيمة الحبكة تبدأ بحدث ثم قمة ثم نهاية لا يمكن أن يأتي البشر بمثلها، صورة سيدنا موسى عليه السلام عندما طلب العلم اللدني، فأرسله الله إلى عبد يعلمه ما جهل، ولتحقيق غاية العلم كان لابد من طلب موسى عليه السلام المصاحبة لهذا العبد الذي ملك بعض من علم اللدن، ولتلبية طلب موسى اشترط المعلم على موسى الصمت وعدم السؤال عما يفعله قال تعالى: فان اتبعتني لا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا ٧٠ الكهف

صمت يوسف عليه السلام

الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم هكذا سماه حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام ولما كان مقامنا هنا هوالحديث عن لغة الصمت كان لنا وقفة مع صمت النبي الكريم يوسف عليه الصلاة والسلام، الذي صمت عقودا كثيرة عن حدث كان يخص رؤية رآها في المنام، وكانت لغة الصمت تحمل دلالات كثيرة سنتبينا في هذا الموضع، فكلنا نعلم قصة يوسف مع أخوته، وحسد أخوته له، وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه، فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة، فالحاسد مهما بالغ في التلطف لاخفاء حسده غلبته نفسه الأمارة فتتب منه أمارات واشارات تدل على حسده، وعندما رأى يوسف عليه السلام الرؤيا قصها على أبيه قائلا، يا أبي، إني رأيت ٢٢ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لي ساجدين قال تعالى إذ قال يوسف لابيه يا ابت أني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين يوسف ٤٠

فنتبين أمر نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام لابنه يوسف عليه

الصلاة والسلام بالكتمان والصمت عن الكلام في قص رؤيا لاخوته قال تعالى يا بني لا تقصص رؤياك... يوسف ٥،

﴿ لا تقصص ... فَيَكِيدُوا لَكَ﴾، (فيكيدوا لك)، جواب النهي، أي أن قصصتها عليهم كادوك، عرف يعقوب عليه السلام أن الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الإخوة، وإنما لم يقل فيكيدوك كما قال فيكدوني لأنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وذلك نحوفيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو ﴿ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلانسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف:٥]٢٣

ولنا أن نتساءل هل استمر يوسف على صمته أم تحدث بعد حين.

المبحث الثالث

مصطلحات الصمت في القران الكريم

أولا: الكتم في القرآن الكريم

كَتَمَ الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ. مِنْ ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وَكِتْمَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] ١- وما كنتم تكتمون البقرة: ٣٣وو٤٢ و: ٧٢و١٤٠ و: ١٤٦و وو١٥٩ و١٧٤ و: ٢٢٨ و٢٨٣

وآل عمران: ٧١ و١١و١٦٧و: ١٨٧ والنساء: ٣٧ و٤٢والمائدة: ٦١و٩٩و١٠٦ والأنبياء:١١٠والنور: ٢٩وغافر: ٢٨

ثانيا: التقلب

من مصطلحات الصمت التي جاءت في القرآن الكريم وقد استعملت مجازا بدلالة الصمت قال تعالى قد نرى تقلب وجهك في السماء البقرة: ١٤٤

فتقلب من الألفاظ التي خرجت مجازا بدلالة الصمت وكان للسياق دورا كبيرا في تحديد هذا المعنى. من مصطلحات الصمت في القرآن الكريم وقد تناولنا في صمت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: نفي الكلام

من مصطلحات الصمت هوماجاء من نفي القول وما يشتق منه وما يرادفه في العربية وما ورد في القرآن الكريم ، فالامر بعد النطق والصمت عن الذي يراد النطق به يعد أحد مصطلحات الصمت، فكما يراد بعدم الصمت الكلام كذلك عدم الكلام هوالصمت ، نحو:يقول،لا يقول، وما يشتق منه نحوقل، لا تقل، يقول لا يقول، يتحدث لا يتحدث، ينطق لا ينطق... وهكذا وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من هذا ولنا وقفة عنده.

أولا: لا يقول وما يشتق منها

وقد أمر الله عباده بالصمت عن أطياف من الكلام وأنواع من القول لسلامة العبادة ولنعيش حياتهم بالصورة الصحيحة على وفق أقنومات الحياة السليمة التي يؤسسها الله بشريعته، ونجد مواقف على الناس الصمت وعدم القول ذكرها الله جلى وعلا في كتابه العزيز وهي: قال تعالى : لا تقولوا راعنا البقرة: ١٠٤ والبقرة: ١٥٤

النساء: ١٧١ النحل: ١١٦ الإسراء: ٢٣. الكهف: ٢٣. النساء: ١٧١ الأعراف: ١٦٩البقرة: ١٥٤

المبحث الرابع

صمت الكفار في يوم القيامة

عرض لنا القرآن الكريم والسنة النبوية مشاهدا من أهوال يوم القيامة، فمن عظمة أهوالها ترتجف القلوب وتتزلزل الأقدام فلا خال ولا عم ولا قرابة دم هناك في ذلك الهول العظيم ليس لنا الا الله، وينقل لنا القرآن مشاهدا من أهوال يوم القيامة وكيف فيها يكون الكافر، وما يعنينا في بحثنا هذا هوتناول موضوع صمت الكفار المعاندين الذين كذبوا بآيات الله، في مواضع كثيرة من القرآن جاءت تتحدث عن صمت الكفار فهم لاينطقون ولا يتكلمون، لا يسألون،ومواضع أخرى فيا يسأل الله الكافر ويحاسبه فيجيب، ولنعرف هل يصمت الكافر أم يتكلم في يوم القيامة لابد من وقفات عند الآيات الكريمات لنتبين هذا.

في قوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ المرسلات: ٣٥ – ٣٦

ومن مواقف صمت الكفار في يوم القيامة التي جاءت في القرآن الكريم قال تعالى ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون النمل: ٨٣ – ٨٥ وقال تعالى: قال اخسؤوا فيها و لا تكلمون المؤمنون: ١٠٨

قال تعالى: يوم يأت لا تكلم نفس الاب اذنه فمنهم شقي وسعيد هود ١٠٥

وقال ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فأصل تَكَلَّمُ "تتفَعَّلُ" أي "تَتَكَلَّمُ" ولكنهم استثقلوا اجتماع التاءين فحذفوا الاخرة

منهما، لانها هي التي تعتل فهي احقهما بالحذف، ونحو(تَذَكَّرُون) يسكنها الادغام فان قيل: "فهلا ادغمت التاء ها هنا في الذال وجعلت قبلها الف وصل كما قلت: "ادَّكَّرُوا" فلأن هذه الالف انما تقع في الامر وفي كلّ فعل معناه "فعل" فأما "يَفْعَلُ" و"تَفْعَلُ" فلا يكون هذا. ٢٤

يَجْمَعُ اللَّه النَّاسَ في صَعيد وَاحد حَيْثُ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعي، فَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ حُفَاةً عُرَاةً، كَمَا خُلِقُوا سُكُوتًا لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنه، قَالَ: فَيُنَادَى مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ في يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَلَكَ وَإِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ٢٥.

ومعنى قوله: لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهول القيامة، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في التلاوم والتساؤل والتجادل، فإما أن يكون بإذن وإما أن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أوإقامة حجة، وقوله فَمِنْهُمْ عائد على الجميع الذي تضمنه قوله:

نَفْسٌ إذ هواسم جنس يراد به الجمع.٢٦

إذن عند القيام يكون الموقف الأول للصمت فلا احد له الحق بالكلام فالكل صامتون والصمت لغة تعبر عن هول الموقف وعن عظمة ما فيه البشر من شدة فالكل صامت ولا احد يتكلم إلا بإذن الله، ولا يؤذن بالكلام إلا لسيد الكونين محمد صلى الله عليه وسلم لا

المبحث الخامس
الصمت عن حرف وكلمة وجملة

يستعمل المتحدث الصمت كلغة ليدل على عدد من المعاني، فالجماعة اللغوية قد تكف عن التصويت وتستعمل لغة الصمت للدلالة على بعض المعان التي يريدون التعبير عنها، فهم يحذفون من كلامهم الحرف والكلمة والجملة.

والحذف والذكر

باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الافادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن ٢٧.

"والتعبير القرآني يستخدم هذا بأسلوب بديع، إذ بالحذف يزداد جمالا، وهذا الحذف ترعى فيه أحوال وأوضاع المخاطبين، وتظهر فيه معان نفسية كثيرة، فمثلا قد يقال لشخص ما (ألا تجلس معنا) فيقول (مشغول) فكأن هذه اللفظة عبرت عن ضيق المقام ٢٨، اختلاف المقام قد يقتضي الحذف أوالذكر

فمن حذف الصوت والسكوت عن النطق به نجده في قوله تعالىفما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا الكهف ٩٧

واختلف أهل العربية في وجه حذف التاء من قوله فما اسطاعوا فقال بعض نحويي البصرة فعل ذلك لأن لغة العرب أن تقول اسطاع يسطيع يريدون بها استطاع يستطيع ولكن حذفوا التاء إذا جمعت مع الطاء ومخرجهما واحد قال وقال بعضهم استاع فحذف الطاء لذلك، وقال بعضهم أسطاع يسطيع فجعلها من القطع كأنها أطاع يطيع فجعل السين عوضا من إسكان الواو وقال بعض نحويي الكوفة هذا حرف استعمل فكثر حتى حذف ٢٩

الصمت عن النطق بياء المتكلم

ومن المواطن التي حذفت فيها الياء واجترئت فهي إشارة إلى الوجازة في الكلام، وأما المواطن التي ذكرت فيها الياء فهومقام إطالة وتفصيل ٣٠قال تعالى: كيدون الاعراف ١٩٥

وقال تعالى فكيدوني هود ٥٥

أنظر كيف حذفت الياء من لفظة كيدون في آية الاعراف، أما الآية التي في سورة هود فالمقام فيها مقام تحد كبير ومواجهة فكان في الحرف اشارة إلى أن هودا عليه السلام أظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي لا بد أن يظهر نفسه، بخلاف التي في الأعراف إذ ليس فيه تحد،والصمت عن الصوت المنفرد عند الصوتيين يدعى بالفونيم الصفري، ولهذا الفونيم دلالة تظهر في خلال التصويت بفونيم مسموع. وهذا ما وجدنا في خلال لفظة كيدون ولفظة فكيدوني كما أن الملاحظ أن الآية التي في سورة هود كثر فيها المؤكدات قال تعالى إن نقول الا اعتراك بعض الهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون هود

فقومه لم يكتفوا برد دعوته وعدم التصديق بها، ولذلك جيء بلفظ (جميعا) زيادة في التحدي فجاءت الياء زيادة في التحدي ٣١ وناسب طول الياء طول التحدي، لذا كان السكوت عن الياء دلالة فرق عن نطقها، فالصمت عن الياء دل على ضعف كيد الكافرين، ودلالة الضعف هذه لم تكن لولا لغة الصمت التي جاءت

في هذه الآية.

الخاتمة

نرفع الرياع ونطوي الصحف بعد هذه الرحلة الممتعة في لغة الصمت، الذي يعد بحثا بكرا وقد توصلنا إلى الكثير من النتأج والفوائد التي منها:

١- لغة الصمت موضوع ما زال به حاجة للبحث والدراسة

٢- للغة الصمت فوائد كثيرة جاءت في القرآن الكريم وعتحدث عنها الرصول محمد صلى الله عليه وسلم

٣- يستعمل المتحدث الصمت كلغة ليدل على عدد من المعاني، فالجماعة اللغوية قد تكف عن التصويت وتستعمل لغة الصمت للدلالة على بعض المعان التي يريدون التعبير عنها، فهم يحذفون من كلامهم الحرف والكلمة والجملة.

٤- اذن صمت زكريا بأمر رباني خارج عن ارادته لذا كان عليه استعمال لغة الايحاء والرمز وهنا لنا أن نتساءل هل الايحاء والرمز هما لفظتان لمعنى واحد ولمعرفة الجوب لابد من العودة إلى المعنى اللغوي للرمز وللايحاء

٥- أن للعرب حس دقيق للمعنى، وقد وضعوا لكل معنى دقيق لفظة، فالصمت هوالسكوت وعدم التكلم، لكن متى نصمت جواب هذا السؤال هويحدد اللفظ المراد، فللصمت عند الاصغاء لفظ وعند الخوف لفظة وعند الذل لفظ وعند الحكمة لفظ

٦- الصمت من حيث الاستعمال ينقسم القسمة العقلية التي هي جائز الاستعمال وواجب ومستحب ومستكره.

٧- الصمت لغة تتخلل نواحي الحياة، تقوم عليها أحكام دينية ودنيوية، نفسية وجسدية، وأحاكم قلبية وروحية، لذا تحدث عن الصمت جل العلماء باختصاصاتهم المنوعة، فوقف عندها اللغويون والأصوليون الفقهاء والصوفيون والموسيقيون وغيرهم من الملل.

٨- للغة الصمت أحكام شرعية واجبة وجائزة عند الفقهاء، كذلك تدخل لغة الصمت في الاجتهادات، ويمكننا أن نحدد المعالم الرئيسة للغة الصمت عند الأصوليين والفقهاء

٩- إن البشر في بداية أمرهم استعملوا الاشارة للتفاهم بل أن بعض المجتمعات تفضل استعمال الاشارة كلغة بدل من الكلام.

ثبت المصادر

١. اساس البلاغة: أبوالقاسم محمود بن عمروبن أحمد الزمخشري جار الله.

٢. اعراب القرآن وبيانه: محي الدين بن أحمد مصطفى درويش دار الإرشاد للشؤون الجامعية حمص سوريا.

٣. اعراب القرآن: ابوجعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس تحقيق د.زهير غازي زاهد الناشر: عالم الكتب ١٩٨٨ بيروت.

٤. اعراب القرآن: احمد عبيد دعاس، دمشق ط١ ١٤٢٥هـ.

٥. الأنوار الساطعات لايات جامعات/ عبد العزيز بن محمد السلمان/ المكتبة الشاملة.

٦. بحر العلوم/ ابوالليث نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي دار النشر/ دار الفكر بيروت تحقيق د.محمود مطرجي.

٧. البحر المحيط في التفسير/ ابوحيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الاندلسي تحقيق صدقي محمد جميل دار الفكر/ بيروت ١٤٢٠هـ.

٨. تاج العروس من جواهر القاموس/ محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي تحقيق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية عدد الاجزاء (٤٠).

٩. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبوالقيض، الملقب بمرتضى الزبيدي الناشر دار الهداية.

١٠. التبيان في تفسير غريب القرآن/ شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري الناشر: دار الصحابة للتراث/ القاهرة/ الطبعة الاولى ١٩٩٢ تحقيق د.فتحي أنور الدابولي.

١١. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي بيروت/ لبنان الطبعة الاولى ٢٠٠٠.

١٢. تفسير ابن ابي حاتم/ ابن ابي حاتم الرازي/ المكتبة الشاملة.
١٣. تفسير ابن ابي زمنين/ ابوعبد الله بن ابي زمنين المري/ المكتبة الشاملة.
١٤. تفسير القرآن العظيم: ابوالفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي/ الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٩٩٠ تحقيق: سامي بن محمد سلامة.
١٥. تفسير القرآن العظيم، ابوالفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي بيروت دار الفكر.
١٦. تفسير القرآن عبد الرزاق الصنعاني/ المكتبة الشاملة.
١٧. تفسير اللباب لابن عادل/ابوحفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي دار النشر/ دار الكتب العلمية بيروت.
١٨. تفسير مجاهد/ مجاهد بن جبر المخزومي التابعي/ الناشر: المنشورات العلمية/ بيروت تحقيق: عبد الرحمن الطاهر محمد الورتي.
١٩. تفسير مقاتل بن سليمان/ ابوالحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الازدي، دار النشر: دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٣ الطبعة الاولى تحقيق احمد فريد.
٢٠. تهذيب اللغة: ابومنصور محمد بن أحمد الأزهري/ دار النشر دار احياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١ الطبعة الاولى تحقيق محمد عوض مرعب.
٢١. جامع البيان في تأويل القرآن/ محمد بن جرير بن كثير الطبري الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة الاولى ٢٠٠٠م تحقيق احمد محمد شاكر.
٢٢. الجامع لأحكم القرآن/ ابوعبد الله محمد بن احمد القرطبي القاهرة- مطبعة الشعب.
٢٣. جمهرة اللغة: أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي.
٢٤. الدر المصون في علم الكتب المكنون/ المكتبة الشاملة.
٢٥. الدر المنثور: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر بيروت ١٩٩٣.
٢٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ محمود الآلوسي ابوالفضل الناشر: دار احياء التراث العربي/ بيروت.
٢٧. زاد المسير في علم التفسير/ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: المكتب الاسلامي/ بيروت الطبعة الثالثة.
٢٨. سلسلة التفاسير/ مصطفى بن العدوي شلباية المصري/ المكتبة الشاملة.
٢٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبونصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفرابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين ١٩٨٧م.
٣٠. الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، الناشر دار العلم للملايين بيروت الطبعة الرابعة يناير ١٩٩٠ (٦ اجزاء).
٣١. صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني/ المكتبة الشاملة.
٣٢. العباب الزاخر: الصاغاتي/ موقع الوراق/ المكتبة الشاملة.
٣٣. العين:لابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال تحقيق د.مهدي المخزومي د.ابراهيم السامرائي.
٣٤. غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القيمي النيسابوري، دار النشر: دار الكتب العلمية بيروت/ ١٩٩٦ ط١ تحقيق: الشيخ زكريا عميران.
٣٥. غريب القرآن/ ابومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق/ احمد صقر الناشر: دار الكتب العلمية ١٩٧٨.
٣٦. فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير/ محمد بن علي الشوكاني.
٣٧. القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.
٣٨. كتاب العين الخليل بن احمد الفراهيدي، الناشر: دار ومكتبة الهلال تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي عدد الاجزاء (٨).
٣٩. كتاب الكليات/ ابي البقاء الكفوي، دار النشر: مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٨ تحقيق عدنان درويش، محمد المصري.
٤٠. كتاب الكليات: ابي البقاء الكفوي تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، دار النشر- مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٨.
٤١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ابوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري دار النشر/ دار احياء التراث العربي بيروت تحقيق عبد الرزاق المهدي.

٤٢. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري الناشر دار صادر بيروت ط الاولى.

تاهوامش

١ ينظر الرسالة القشيرية في علم التصوف،عبد الكريم القشيري تحـ معروف زريق وعلي عبد الحميد ، بيروت دار الجيل ط٢ ١٩٩٠ ١١٩-١٢٤

٢ البرهان المؤيد ٢٠٧-٢٠٨.

٣ ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية ٦٨-٦٩.

٤ المصدر نفسه ٦٩.

٥ ينظر: لسان العرب صمت.

٦ ينظر: المصدر نفسه حبس.

٧ ينظر: المصدر نفسه خربق.

٨ ينظر: لسان العرب خرمق.

٩ ينظر: المصدر نفسه ازم.

١٠ الألفاظ المختلف في المعاني المختلفة ١/ ١٦٧.

١١ غريب الحديث لابن قتيبة ٣/٦٥٧ .

١٢ ينظر: المصدر نفسه همد.

١٣ينظر: المصدر نفسه قرسم.

١٤ جامع العلوم والحكم ١/ ٣٤١ .

١٥ مُسْنَدِ فتح الباري لابن حجر ٧/ ١٥٠.

١٦ التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/ ٢٠١.

١٧ ينظر: روح البيان ٨/ ٣٧٧.

١٨ ينظر: المصدر نفسه ٦/ ٣٠٥٣.

١٩ ينظر: فيض القدير ٢/ ٢٨٨.

٢٠ ينظر: تفسير الماوردي ٥/ ٣٩١، لطائف الإشارات = تفسير القشيري ٣/ ٤٨١.

٢١ ينظر: الوجيز للواحدي ١٠٣٨، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥/ ١٧٧ والجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٨٥.

٢٢ قال صلى الله عليه وسلم: "لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أوترى له". وقال: "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا". وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١٢٢.

٢٣ ينظر: تفسير النسفي ٢/ ١٧٨.

٢٤ ينظر: معانى القرآن للأخفش ١/ ٣٨٨.

٢٥ ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٤٦ و١٧/ ٥٢٦.

٢٦ ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ٢٠٧.

٢٧ ينظر: الكشاف ٣/ ٤٠٤.

٢٨ ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها ١/ ٢٦١.

٢٩ ينظر: الدر المنثور ٥ /٤٦٠، تفسير أبي السعود ٥ / ٢٤٦، حجة القراءات ١ / ٤٣٥، روح المعاني / ١٦ / ٤١، الإتقان ٢ / ٢٥١.

٣٠ ينظر: التعبير القرآني السامرائي ٨٠.

٣١ ينظر: التعبير القرآني السامرائي ٨١.